**المصادر المادية**

# **د/- المصادر المادية (الآثار والنقوش والمسكوكات):**

للآثار أهمية واسعة في كتابة التاريخ، إذ هي الشاهد عن التاريخ وعن قيمة الإنجازات الإنسانية حسب العصور التي تنتمي إليها، ومن هذا المبدأ فإنه للمصادر المادية أهمية كبيرة في كتابة التاريخ الإسلامي، خاصة أن هذه الشواهد تخضع للدراسة تحت عناية علم بأكمله ومنهج وأهداف، وهو الأمر الذي يضفي المصداقية والعلمية على المعلومات التي نأخذها منها، قبل التفصيل في أهمية المصادر المادية في كتابة التاريخ لابد من التعريف بهذا العلم الذي يعنى بها.

لم يتفق الباحثون على تحديد معنى واحد لعلم الآثار[[1]](#footnote-1) لكن هناك من لخص مفهومه في: "دراسة جميع الأشكال الملموسة والمنظورة التي تحفظ نشاط بشري كآثار كهف طبيعي سكنه الإنسان"[[2]](#footnote-2)؛ وهناك من عرفه بأنه: "علم يبحث عن مخلفات الماضي وبقاياه الأثرية واستخراجها من تحت الثراء بالأساليب العلمية"[[3]](#footnote-3). وخلال القرن السابع عشر استخدم للدلالة على: "دراسة جميع الأشياء المادية المنظورة التي صنعها الإنسان القديم أو الأشياء التي لها علاقة مباشرة به"[[4]](#footnote-4).

ومع أن الأركيولوجيا كمصطلح فيلولوجي يعني علم الأشياء القديمة، إلا أن التطورات المنهجية الحديثة تجاوزت هذا المفهوم ليشمل علم الآثار دراسة كل ما يتعلق بمخلفات الإنسان والبيئة التي عاش فيها وما ترتب عن ذلك من تفاعل بينهما[[5]](#footnote-5).

وبذلك فلعم الآثار يعنى بترتيب ودراسة مخلفات الحضارات القديمة -وتفسيرها- واستنباط الحقائق التاريخية منها، بواسطة أساليب علمية دقيقة، قوامها المشاهدة والموازنة والاستنباط، وهدفه أن يهتدى إلى التاريخ الكامل للعصر الذي يعنى بدراسته[[6]](#footnote-6).

وتنقسم الآثار إلى نوعين:

* آثار ثابتة: وهي التراث العمراني عموما وما ارتبط به من مساجد، وقصور الخلفاء والامراء والولاة، وما حوته من نقوش وكتابات ونافورات وحدائق وغيرها.
* آثار منقولة: وهي المسكوكات بالدرجة الأولى، ومختلف المواد التي يستعملها الإنسان مثل: الأواني الفخارية والحلي وأدوات العمل والفلاحة والصناعة وغيرها...

ومن المعروف تاريخيا وعلميا أن حضارة المشرق خلفت تراثا أثريا هائلا يستحق الاهتمام من طرف الباحثين[[7]](#footnote-7)، ويبدو ضروريا للدراسة التاريخية، خاصة من حيث المخلفات العمرانية والمعمارية بمختلف أشكالها وأنواعها (مساجد، قصور، نقوش، زخارف، نقود، أواني فخارية ونحاسية وحتى ذهبية وفضية...). وقد تضمنت العديد من الكتابات على جدران المساجد وفي التحف الأثرية وعلى شواهد القبور وفي الأضرحة والتكايا والمنازل وسائر العمائر وعلى المنسوجات؛ وقد وصل إلينا الألوف من هذه الكتابات المليئة بالأدعية والآيات القرآنية والحقائق المؤرخة، خاصة أنهم اعتمدوا الكتابة كعنصر من العناصر الزخرفية[[8]](#footnote-8).

ولا نعتقد أنه يختلف باحثان أو طالبان في أهمية المصادر المادية، بل مصداقيتها وذلك للأسباب الآتية:

* تعتبر النقود من الوثائق الأصيلة وذلك بسبب النقوش التي تحملها والتي تتمثل في أسماء الأمراء وألقابهم وكذلك في العبارات المنقوشة، سواء كانت ذات دلالات سياسية أو دينية أو غيرهما[[9]](#footnote-9).
* قدرتها على الثبات أمام متغيرات الزمن، إلا إذا طرأ عليها طارئ طبيعي أو تأثرت بتأثير بشري.
* معاصرتها للأحداث والحقائق التي تنقلها أو تشير إليها.
* كتبت لحاجة جمالية أو وظيفية، ولم تكتب لتسجيل الحقائق التاريخية أو للتأريخ لطرف من أطراف السلطة أو النخبة، لذلك فهي تتميز بالحياد ولا تتحيز لطرف دون الآخر.
* إذا لم تتعرض للتغيير فتواريخها أكثر صحة والأدق والأولى أخذها بعين الاعتبار، وقد وردت نماذج لدى بعض الدارسين يؤكدون على ان النقوش والكتابات الواردة في الآثار افسلامية بالمشرق صححت الكثير من الأخطاء الواردة لدى المؤرخين، منها: تعريب السكة فقد اختلفت الروايات فيها بين سنة: 72ه، 74ه، 75ه، 76ه، بينما اثبتت النقود أنها كانت بشكل نهائي سنة 77ه ، وغيرها من الأحداث مثل: روايات بناء المدن مثل: بغداد...، وغيرها من الأمثلة[[10]](#footnote-10).

وعلى هذا الأساس فإن الباحث يمكن توظيف نتائج الأبحاث الأثرية في:

* المجال السياسي: من خلال معرفة الأسرات الحاكمة وإنجازاتها العمرانية، وبعض الأسماء التي أغفلتها كتب التاريخ، مثل الوزراء وغيرهم من أهل السلطة والبلاط.

من المواضيع الهامة التي وردت بشكل عشوائي في المؤلفات الإخبارية وساعدتنا المصادر الأثرية على معرفتها هي مسألة الألقاب منها اتخاذ المأمون لقب الإمام سنة 193ه/808م بدل سنة 195ه/810م أي قبل توليه السلطة خلال ولاية العهد، وهو ما أثبته درهم عثر عليه، ضرب ببخارى سنة 193ه/808م[[11]](#footnote-11).

* أما المجال الاقتصادي: فإن المواد المستعملة وضخامة العمران المادي توحي بالاستقرار الاقتصادي، والرخاء المالي، أو بإثقال كاهل السكان وعامة الناس بالضرائب والمكوس، ولا يمكن إغفال أهميتها في إبراز المصنوعات من الفخار والمعادن وتأثرها بالشعوب السابقة أو تأثيرها فيها.
* ومن المجال الاجتماعي: فإن الآثار المختلفة والقصور والمساكن والأواني تعطينا فكرة واضحة ودقيقة عن طبيعة ونمط المعيشة في مجتمعات المشرق في العصر الوسيط؛ وذلك من خلال استكشاف العادات والتقاليد وحتى طبيعة الذهنيات والعلاقات والمستوى المادي والاجتماعي للمجتمعات والشعوب التي خلفت هذه الآثار.
* أما من الناحية الثقافية والعلمية: فإن هذ المصادر تفيدنا في مستوى تطبيق العلوم الرياضية والهندسية في هذه المجالات، ومدى التطور التقني الموجود بها مثل: النافورات، الساعات والأدوات الفلكية...
* ومن الناحية العمرانية والفنية فهذه المصادر تفيدنا في الطرق المعتمدة في الرسم والزخرفة وإيحاءاتها الفنية ومستوى الذوق الإنساني آنذاك[[12]](#footnote-12)، والمواد المستعملة في البناء وضخامته ومتانته وصلابته، أو هشاشته وغيرها من المعلومات التي تفيد هذا المجال. كما أنها "تعطي فكرة صحيحة عن طبيعة العصر الحضارية من الناحية المادية، مما يعجز الوصف عن التعبير عنه مهما بلغ من الدقة والأمانة"[[13]](#footnote-13)

وتعتبر القدرة على الإبداع وتنوع المصنوعات وتنوع أفكارها وزخارفها وأشكالها وميادين استعمالها، والمواد التي يستعملها خاصة المعادن والخشب وغيرها[[14]](#footnote-14)، من أهم ما يمكن أن يستنتجه المؤرخ من خلال التحف والأدوات المستكشفة.

* في حالة الاختلاف بين نص مكتوب ونص أثري فإن الأولوية تقدم للمصدر المادي، مع أن الطريقة المثلى هي المقارنة بين النصوص التاريخية والأدبية والمصادر المادية والموازنة بينها، ويعتبر المستشرق السويسري ماكس فان برشم Max Van Berchem الذي يعتبر رائد المشتغلين بعلم الكتابات الأثرية الإسلامية[[15]](#footnote-15).

ومن الصعوبات المنهجية والعوائق التي تعترض الباحث أو الطالب عند استفادته من المصادر المادية:

* الكتابات التاريخية الأثرية التي ترجع إلى العصر الإسلامي الوسيط يغلب عليها التكرار وينقصها التنوع، فالغالب عليها آيات القرآن الكريم، والأدعية، وعبارات التعظيم خاصة لمن شيدوا هذه العمائر[[16]](#footnote-16).
* يذهب بعض الباحثين إلى أن المصادر المادية توفر معلومات منقوصة وجب على المؤرخ استكمالها بمصادر أخرى خاصة المكتوبة، فالمخلفات المادية لا تمكننا من معرفة الواقع الاجتماعي أو الاقتصادي بأكمله في الماضي لذلك يرفض علم الآثار في وقتنا الحالي تلك التفرقة بين المخلفات المادية ومكملاتها من ثقافة الشعوب آدابهم وأديانهم وعلومهم... [[17]](#footnote-17)

1. - إسماعيل سامعي، علم التاريخ عند العرب، ص127. [↑](#footnote-ref-1)
2. - المرجع نفسه. [↑](#footnote-ref-2)
3. - المرجع نفسه. [↑](#footnote-ref-3)
4. - كامل حيدر، **منهج البحث التاريخي والأثري**، بيروت: دار الفكر اللبناني 1995م، ص11. [↑](#footnote-ref-4)
5. - فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، ص124. [↑](#footnote-ref-5)
6. - علي محمود المليجي، **مدخل إلى علم الآثار الإسلامية**، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية 2008م، ص124. [↑](#footnote-ref-6)
7. - للاطلاع على بعض أنواع الآثار في الحضارة الإسلامية ينظر: المرجع نفسه. [↑](#footnote-ref-7)
8. - سيدة إسماعيل كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي، ص121. [↑](#footnote-ref-8)
9. - نبيلة حسن محمد، في المكتبة التاريخية، مرجع سابق، ص33. [↑](#footnote-ref-9)
10. - محمد حمزة إسماعيل الحداد، **النقوش الآثارية مصدرا للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق 2002م، ص59-68/ يمكن الاطلاع على أمثلة عديدة في كل الكتاب. [↑](#footnote-ref-10)
11. - المرجع نفسه، ص69-73. [↑](#footnote-ref-11)
12. - لطيفة بن سعيد، "البعد الإيماني للعمارة والتعمير"، **المؤتمر الدولي الرابع: العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر والنهضة الأوروبية**، 8-9-10جوان 2014م، سلسلة منشورات جامعة الأمير عبد القادر للعلاقات الخارجية والتعاون والتبادل والتنشيط والاتصال والتظاهرات العلمية، 2015م، ص68-76. [↑](#footnote-ref-12)
13. - نبيلة حسن محمد، في المكتبة التاريخية ومناهج البحث، مرجع سابق، ص33. [↑](#footnote-ref-13)
14. - حسن الباشا، **مدخل إلى الآثار الإسلامية**، القاهرة: دار النهضة العربية 1990م، ص249-262. [↑](#footnote-ref-14)
15. - سيدة إسماعيل كاشف، مصادر التاريخ الإسلامي، ص123-124. [↑](#footnote-ref-15)
16. - المرجع نفسه، ص122. [↑](#footnote-ref-16)
17. - فريد بن سليمان، **مدخل إلى دراسة التاريخ**، تونس: مركز النشر الجامعي 2000م، ص 44-45. [↑](#footnote-ref-17)